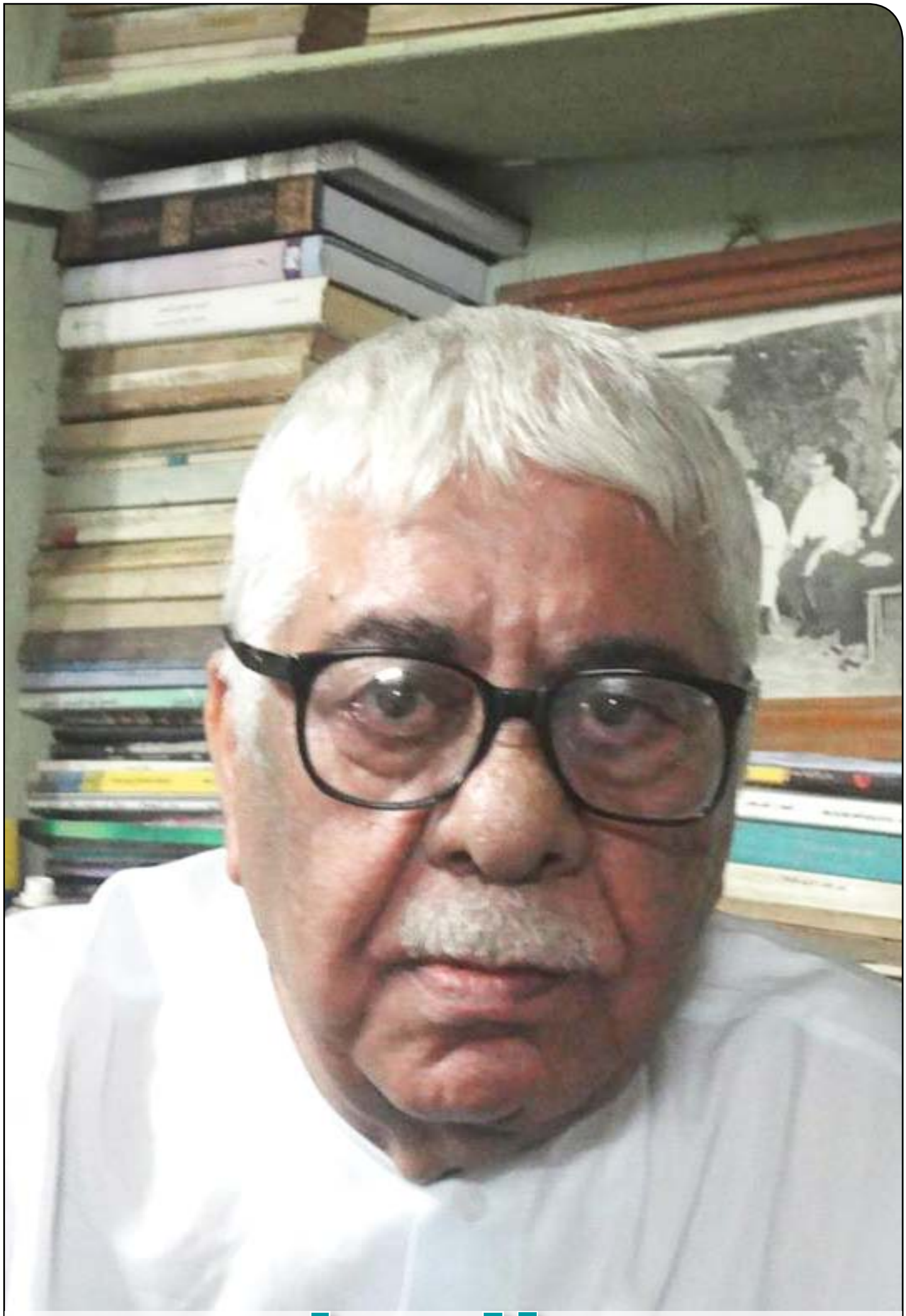

عراقيون
من زمن التوهج

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

العدد (4151) السنة الخامسة عشرة - الخميس (8) آذار 2018
WWW. almadasupplements.com

حميد المطبعي

6
حميد المطبعي يراسل جيفارا

موسوعي بأسلوب في الكتابة مميّز

مثابات شاخصة تخلّد اسم حميد المطبعي

شـــكـــيـــب كـــاظـــم

كانَ أول لقاء لي مـع الأديب الكاتب حميد (محمد علي) المطبعي، يوم زرته في يوم الأربعاء التاسع عشـر مـن أيلـول/ ١٩٧٣ في مقهـى (ياسين) الجميل والأنيـق في قسمه الصيفـي المطل على شـارع أبـي نواس، قبـل أن يتحـول المقهى الى فنـدق إسمنتي صخـري، ليزول معلـم ثقافي من معـالم بغداد، زرته حاملاً حديثـاً نقدياً عن رواية (خمسـة أصـوات) للمبدع العراقـي الكبير غائب طعمة فرمـان، لغرض نشره في مجلـة (الكلمة) الشهريـة والتـي كان يتـولى إصدارهـا ورئاسة تحريرهـا، كان معـه في جلسـته تلـك، القاص المتميز موسى كريدي، والقاص والروائي موفق خضـر، وأخيراً حضر عبد الوهـاب البياتي. قبل هـذا اللقـاء، كنا هـو وأنـا نتلمس بداياتنا على الـدرب، درب الكتابـة في الملحـق الأدبـي، الـذي تولـت إصداره جريدة (الجمهوريـة) مع عدد كل خميـس، أثنـاء أعـوام ١٩٦٥، ١٩٦٦، ١٩٦٧، وصـدر آخر عدد من هذا الملحق يوم الخميس ١/ حزيـران/ ١٩٦٧، قبل أيام مـن زج الأمة العربية بحـرب خاسـرة، معروفـة مآلاتهـا سلفـاً، لعـدم الاستعـداد الكافي لها، في يـوم الاثنين الخامس مـن حزيران/ ١٩٦٧ لتحل الكارثـة، التي ما زلنا نعانيهـا حتى أيامنا هذه، وليتوقف الملحق، الذي أعده وثيقة ثقافيـة مهمة تؤرخ لمرحلة فاصلة في الحيـاة الثقافيـة العراقية آنذاك، وما زلت أحتفظ بأعـداد كثـيرة منه في ضمـن أرشيفـي الورقي.

ولأن حميـد المطبعـي شغوف بالقـراءة والكتابة والأرشفـة، مـا اكتفـى بالنشـر في الصحف، بل أصدر مجلته الرائدة والرائعة (الكلمة) على شكل ملف بداية، كـي لا يخضع لقانون المطبوعات، تم انتقـل بها هو وصديقه القاص المبدع، الذي يعد علامـة شاخصـة باذخـة في فن القصـ العراقي، موسـى كريـدي، انتقلا بها إلى بغـداد ليصدراها مجلة شهريـة استقطبت أقلام الكتّـاب العراقيين والعرب، كنا نتابعها عند رأس كل شهر إلى جانب مجلات: (الآداب) و(الأديـب) و(دراسات عربية) وأسبوعيـة (الحريـة) لسـان حركـة القوميـين العرب، وكلها تصـدر في بيروت. ما عتمت مجلة (الكلمـة) بعد سنوات قليلة، أن أغلقت، مع العديد من المجـلات الأهليـة، وغـير الرسميـة، فالدولة المؤدلجة تحـاول فرض قبضتها علـى المنشور، فاحتجبـت عـن الصدور مجـلات (الرابطة) التي كانت تصدرها جمعية الرابطـة الأدبيـة بالنجف، فضـلاً عن (الكتـاب) لسان حـال اتحـاد المؤلفين والكتاب العراقيـين، الذي رأسه الشاعر والمحقق الأستـاذ هـلال ناجـي، و(البـلاغ) الصـادرة عن الجمعية الإسلاميـة للخدمات الثقافية بالكاظمية و(العدل) النجفية وغيرها.

في العقـد الثامـن مـن القـرن العشريـن، والدنيا حـرب ضروس، والحياة بـدأت في التراجع، بدأ حميـد المطبعـي مشروعـه التوثيقـي التسجيلي الرائد، ليؤرخ لعديد المثابات الشاخصة والنافذة في الحيـاة الثقافيـة العراقية، الـذي تولى نشره علـى الصفحة الثامنة من جريـدة (الثورة) تحت عنـوان محـدد سماه (الجـذور في تـراث العراق الحديـث). كان حميـد المطبعـي، يجـري لقـاءً ثقافياً معرفيـاً موسعاً، مع أحد هؤلاء الشخوص وينشـره على حلقـات أسبوعية، وفي يوم محدد هو يوم الاثنين، اللقاء يصل الى حجم كتاب ولعل الصحفـي الأديب الفلسطيني صقـر أبو فخر، قد ترسَّمَ خطـى المطبعي في حواراتـه المطولة، وما زال في الذاكـرة حـواره الطويـل والجميـل مـع الشيوعـي اللبناني المعتزل والمفكـر كريم مروة، الذي أصدره في كتاب امتد إلى اربع مئة وثمانين صفحـة مـن الحجـم الكبير سمـاه (كـريم مروة يتذكـر. في مـا يشبه السـيرة) أصدرتـه (المدى) بطبعتـه الأولى عام ٢٠٠٢ أو لقاءات طلال نعمة، مع المفكر اللبنـاني الياس مرقص، التي أصدرها المركـز العربـي للأبحـاث ودراسـة السياسـات، كتابـاً عنوانه (الياس مرقص حـوارات أجراها طـلال نعمة). ولـولا جهد حميـد المطبعي الجهيد هذا، لطوى الزمان سـيَّرْ العديد من هذه المثابات المهمـة، لأننـا، ولا سيمـا في العـراق لا نهتـم بالتوثيق وكتابة مذكراتنا وسيرنا الشخصية، لما رسخ في الذات العربية والمسلمة، من عدم البوح بالخصوصيـات، عادين تلك مسألـة شخصية، لا علاقـة للآخرين بهـا، وإن المرء يعـرف بمنجزه، لا سيرتـه الذاتية! ولأن المطبعي حميد موقن بأن الصحف تطوى، كطي السجل للكتب، فإنه اجترح منقبة رائعة، بأن جمع هذه الحلقات الخاصة بكل شخصيـة، ونشرها في كتاب، لا بـل بكتب تولت إصدارهـا دار الشـؤون الثقافية العامـة ببغداد، وتحـت عنـوان موحد هـو: (موسوعـة المفكرين والأدبـاء العراقيـين) ليـؤرخ لحيـوات وليحفظ ذكـرى: أسـتـاذي الشاعـر والنحـوي الجليـل إبراهيم الوائلـي، والمفكر الكردي الكبير مسعود محمـد، واللغـوي والمحقق محمد بهجـة الأثري، والموسوعي الشيخ جـلال الحنفي، والفيلسوف حسـام محيي الديـن الآلوسي، وأسـتـاذي الناقد الكبـير علـي جـواد الطاهـر، والمـؤرخ الدكتور جواد علـي، صاحـب (المفصل في تاريـخ العرب قبـل الاسـلام) والناقـد المفكر محيـي الديـن إسماعيل، والباحـث عبد الغني الملاح، والدكتور بشـير فرنسيـس والقاصـ والروائـي الكاتـب عبـد المجيد لطفي والموسوعي العلامـة الدكتور صفاء خلوصـي، والدكتور حسين علي محفوظ، والقاصـ ذو النون أيوب، ورائد المسرح العراقي يوسـف العـاني، ومطـرب العـراق الأول محمـد الكبنجـي والباحـث المفهرسـ كوركيسـ عـواد، وشقيقـه المحقق المفهرس ميخائيـل عواد، وعالم الاجتماع الدكتور علـي الوردي، والباحث جمال الديـن الآلوسـي، والمؤرخ اللـواء الركن محمود شيـت خطـاب، والشاعـر المترجـم علـي الحلي، والباحـث الموسوعـي عبـد الحميـد العلوجـي والباحث الفلكلـوري ودارس الأمثال العميد عبد الرحمن التكريتي، والمؤرخ عبد الرزاق الحسني والقائمـة تطـول. كمـا انه حـرر اكثر مـن زاوية ثقافيـة في الصحف منها زاوية (مـن أنا؟) يطلق فيها للشخص المستفتي العنان للحديث عن ذاته، ومـا زلـت احتفظ بالعديـد منها: للمحقـق السيد مكـي السيـد جاسم وأسـتـاذي إبراهيـم الوائلي وأسـتـاذي الدكتور علي جـواد الطاهر. كما حرر زاويـة ثقافيـة أخـرى عنوانهـا (وجـوه ثقافية) ومنها لقـاء مع القاص الراحل عبد اللـه نيازي، الذي غـبن نفسه وغبنته السياسـة وغبنه النقّاد، ليرحل نائيـاً في احدى الـدول الإسكندنافية كما كان يحـرر زاويـة ثقافيـة جميلة أخـرى عنوانها (نـدوة في جـدل الأفـكار). ولعلـه كان يحررهـا باسـم مستعـار، هو سليـم شريـف، أم أن سليماً هذا كان يترسم خطاه، فكتب مثلما كتب المطبعي؟ وفي أرشيفي لقاءه، المطول مع الأستاذ الجامعي العروضي الموسوعي الدكتور صفاء خلوصي.

يكفي حميـد المطبعي فخراً أنـه أنجز هذه الكتب التوثيقية الرائعة، ولينظـر المنصفون إلى جهده هذا، الذي سيبقيه في ذاكرة الثقافة العراقية، كما أبقـى هو هذه الكوكبـة الرائعة وغيرها محفورة ذكراهـا في صخرة ذاكرتنا، فضـلاً عن موسوعة (أعـلام العراق في القـرن العشريـن) التي قرأته وإيـاه، ثـم خولنـي قراءتهـا ومراجعتهـا، مـن غـير أن أراجعـه في أمر، لكنـي- تواضعاً وربما خجالـة- لم أطالبه بتدوين ذلك والإشارة اليه في الموسوعـة، كوني راجعتهـا لغويـاً ومعلوماتياً.

ظل حميد المطبعي يكتب ويبحث ويقرأ على مدى نصف قرن، واصدر العديد من الكتب في مجالات الفلسفة، التـي يجدها اقرب المعـارف إلى نفسه، وليؤلـف كتاباً عـن أرسطو، كما اهتـم بالمكونات العراقيـة، فـكان يشـد الرحـال نحـو مواطنهـا، ممتطياً المطايـا، إن تعذر الوصول اليها بواسطة النقـل الحديثـة، كـي يصـل إلى أماكـن سكنهـا القصيـة النائيـة، ليدرسـ الايزيديـين والشبـك والكاكائيـة ووثـق ذلك بكتـب بعينها. مـا اكتفي حميـد المطبعي بجهده التوثيقي الرائع والجميل لحيـوات الأحياء، بـل تنـاول في دراساته الثرة حيوات العديد مـن المثابات المهمة الراحلة، وكان ينشرها في جريدة (الزمان) وما زالت في الذاكرة دراسته عن عـالم الفيزياء العراقـي الدكتور عبد الجبار عبد الله، الذي جاء الى الإعدادية المركزية ببغـداد، يـوم كان مدرسـاً للفيزيـاء فيهـا قبـل انتقالـه للجامعة، جـاء إلى المدرسـة حاملاً مظلة وكانت الشمس ساطعـة، مما جلب انتباه زملائه المدرسـين الذيـن تساءلـوا متهكمـين، عـن سبب جلبه هـذه المظلة؟! فأخبرهـم إن السماء ستمطر مـدراراً، وما هـي الا أويقات قليلـة، حتى مطرت الدنيا، ليتحـول تساؤل زملائـه المشوب بالتهكم والاستغـراب، إلى إقـرار وإعجـاب. منـذ ٢٠٠٣ والى منتصـف سنـة ٢٠١٥ ظـل حميـد المطبعي يكتـب عمـوده الصحفـي الجميـل، ظـل يطلـق أسئلتـه المشوبـة بالفلسفة، والداعيـة إلى حرية العقل والفكر، ظل يكتب عموده، بأسلوب خاص، فحميد المطبعي صاحب أسلوب في الكتابة مميز، تستطيـع معرفته، حتى قبـل أن تطالع اسمه، أنه من الرعيل الذي يكاد يتوارى أو بالحري توارى من أصحاب الأساليـب: طه حسين، أستاذي علي جـواد الطاهر، الأستاذ مـدني صالح، عبد المجيد الشـاوي وشاكـر مهـدي العبيـدي، أطـال اللـه عمـره، وخفف عنه غربته في الديـار الأمريكية.

ظـل حميد المطبعي يطلـق أسئلته، حتى تباطأت هـذه الأسئلـة، فتوقفـت فالرجل قـد عصفت به السنـون. وكنـت أشاهـد كتاباته الأخـيرة التي يرسلهـا لجريدة (الزمان) وقـد بان ضعف خطه فقـد ظـل الرجل يكتـب بورق مخطـط خاص به عليـه اسمـه (حميـد المطبعـي) وبالقلـم الحبر.

سيظـل حميد المطبعـي في الذاكـرة، لأنه نحت له في صخرة الذاكرة العراقية مكاناً مكيناً راسخاً، ومـا أظنـه إلا سيبقـى مفتخراً بما خطتـه يداه، وهـذا حسبه.

هل تكفـي بضع صفحات للكتابة عــن الرجل الموســوعي، الكاتب، والباحث، والأديب الأســتاذ حميــد المطبعي.. يقينا أنهــا لن تكفي، فنحــن إزاء جبل من المعلومــات، والوثائق، والصحف والمجلات.. لــه في الصحف فقط قرابة ٥٠٠٠ مقالة، فضلاً عن كتبه المنشــورة، و»مجلة الكلمة»التي أصدرها، و«موســوعة المفكرين العراقيين»، وموســوعة «أعلام العــراق في القرن العشرين» بثلاثة مجلــدات، وهو لايزال يحثّ الخطى.. لايكل ولا يمل.. ويريد، أن يحفر لنفســه موقعاً، في الذاكرة الثقافية العراقية المعاصرة.. فمن هو حميد المطبعي؟!.

ابراهيم خليل العلاف

حميد المطبعي... موسوعة العراق

في حزيـران ٢٠٠٦، كـرّم مـع نخبـة مـن رواد الصحافـة العراقية وشهدائها. فوقف الرجل، شامخاً، بين زملائه روّاد الكلمة والحرف بإنجازاتـه الكبيرة.. حميـد المطبعي كما يحب هـو أن يقدم نفسه، إنسان مشغـول بالفلسفة، ثائراً بطبعه، جدلي الفكر، كما انه جدلي الفعـل / لايستقـر، ولا يهدأ حتـى يضع لمساته علـى موضوع مقال لـه.. يتناول الحريـة، ويبحث في الإدارة، ويناقـش مديات العطاء الإنسـاني.. هو "حميـد محمـد علي المطبعـي».. ليس المهـم هو من العشـيرة الفلانية أو المدينة العلانية، انه ابـن العراق، لايفرق بين من يسكن الشمال ومن يسكن الجنوب... المعيار عنده هو الإبداع.. والمقياس هو من يقدم للعراق.. يستحق أن يشار إليه بالبنان.

ولـد في مدينة النجـف الأشـرف، العاصمة الثقافيـة العراقية سنة ١٩٤٢.. وفي معاهدها العلمية درس الفلسفة، وعلوم العربية، وقد أخـذ الكثير مما يجب أن يعرفه هـو في سن الشباب من عبد الكريم الزنجـاني صاحـب نظريـة التقريب بـين المذاهب، ومن هنـا تعلم التسامح،وتعلـم احـترام الآخر، وعـرف الشوق لأنـه كابده. وفي أواخـر الخمسينـات وأوائل الستينـات من القـرن الماضي، تعرف علـى الوجودية، فارتبط مع روّادها، وتراسل مع جون بول سارتر صاحـب الفلسفـة الوجودية، وتعلم من جيفـارا أن النزعة الثورية حركـة، وأعجب بحركة اليسار الجديد وهـذا هو ما دفعه إلى كتابة رسالـة في جـدل الآخـر سنـة ١٩٥٩ بعنوان: "الفجـر الصـادق». وبعـد ذلك بعـام، وقف عند القوميـة وألّف سنـة ١٩٦٠ رسالة (في القومية العربية).. الوجودية تعانقت مع اليسار والثورية ارتبطت بالقومية، ووجد نفسه مدفوعاً للتعبير عن مكنونات نفسه، فاجتمع مع نخبة من أصدقائه، وفي مقدمتهم الأستاذ موسى كريدي ليصدر مجلة: (الكلمة) في ٢٦ كانون الثاني / يناير ١٩٦٩ هذه المجلة التي كان لهـا حضورها الفاعل في الساحة الثقافيـة العراقية المعاصرة، مـع بساطة إخراجها، وضعف إمكاناتهـا. قال عنها صديقنا الأستاذ الدكتـور عبد الإله الصائـغ في معرض حديثه عـن الشيخ الدكتور محمـد كاظـم الطريجي، أحـد علمـاء النجـف الأشرف الكبـار، أن حميـد المطبعي، كان واحـداً من مؤسسـي (نـدوة الآداب والفنون المعاصـرة) التـي تأسست في النجف الأشرف مطلـع الستينات من القرن الماضي، إلى جانب الأساتذة الروّاد عبد الإله الصائغ، وزهير غـازي زاهد، وزهير الجزائري، وموفـق خضر، وعبد الأمير معلة، وموسى كريدي، وجاسم الحجاج.

وقد كان لهذه الندوة لقاءات، وحوارات ساخنة في مقاهي ومنتديات الكوفـة والنجف، وقال الأستاذ الدكتور عبد الإله الصائغ، أن حميد المطبعي كان زميله في مدرسة الغري الأهلية المسائية، وفي متوسطة الخورنق، وانه أصدر (مجلة الكلمة) على هيئة ملفات مستغلاً ثغرة في قانون المطبوعات عهـد ذاك مستفيداً من عمله في مطبعة الغري التـي يمتلكها أخـوه الأكبر عبد الرضا المطبعـي، وأضاف الصائغ، أن المجلـة اتجهـت نحـو اليسـار والماركسية.. وكانـت تتحدث عن الديمقراطية، وحرية الكلمة، فاستقطبت الكثير من الكتّاب والأدباء والشعراء، من داخل العـراق وخارجه، أمثال نزار قباني، وسعدي يوسـف، وادونيس، وعبد الواحـد الخضيري، وبشرى البستاني، وعبـد الرحمن طهمازي، وجليل القيسي، وإسماعيل فهد إسماعيل، ويوسف الحيدري، ومحمود جنداري.

أمـا الأستاذ زيد الحلي فكتب مقالاً أعرب فيه عن رأيه بمجلة الكلمة قائلاً: إن مجلة الكلمة "سطعت نهاية ستينات القرن الماضي، وحمل أجنحتهـا العديـد مـن الأدبـاء المعروفين محليـاً وعربيـاً، وفتحت صفحاتهـا (السمراء) لأقلام كانت تحلم بالنشر،... بينهم من تسلّق هامات الشهرة، وهو يستحق.. ومنهم بقى متعكزاً على وهم سرعان ما ضاع في التيه، لكن المجلة بقيت تتحمل أعباء الصدور».

وكان للمطبعـي وزميله موسى كريدي، الـذي التحق به في تحرير مجلـة الكلمة، أن تجد المجلة طريقها إلى المكتبـات والمثقفين آنذاك، وقال الحلـي إن "من يطالع مجلة الكلمة مجـدداً، ويحاكمها بمنطق العدالـة، يجد أنها آمنت بسريان التاريـخ والحضارة، وأدركت أنه ليسـ هنـاك حداثة لاتـراث لها، وتجلّـى ذلك بما نشرتـه في معظم أعدادهـا». لقد شـكّل طائر العنقـاء سمة أساسيـة في كل ما نشرته المجلة من شعر ودراسة ومقالة».

لقـد كانت مجلـة الكلمة ملتقى الأدبـاء، والشعراء، وكتـاب القصة، فضـلاً عـن أنها سهّلـت للشباب نشـر نتاجاتهم. وقـد أصدرت سنة ١٩٧٣ عـدداً خاصـاً عـن شعـراء السبعينـات مـن القـرن الماضي، ونشـرت بيانهم (بيان القصيـدة اليومية).. كانـت (الكلمة) تصدر بجهـد شخصـي من حميـد المطبعي وموسـى كريـدي، وأصبح لها صـدى في البلاد العربية، حتـى أن أدونيس عندما زار العراق سنة ١٩٦٩، أصـر علـى زيـارة المطبعة التـي كانت تطبع مجلـة الكلمة، وأعجـب بجهد محرريهـا وحرصهم على نشـر الأدب الحديث. كان حميـد المطبعي يقترن ببغداد كصرح ثقافي، وجزء مهم من عمارتها الإبداعية والمعرفية.

جـاء في ترويسة مجلة الكلمة.. "أنها مجلة شهرية ثقافية تصدر في النجـف الأشـرف». وقد صدرت في النجف الأشرف ثم انتقلت إلى بغداد صاحبها حميد المطبعي، ورئيس تحريرها موسى كريدي.

كانـت الحريـة، ولاتزال، هاجسـه الوحيد، فألّف كتابـه (رسالة في الحريـة) ولكن متـى؟! انتظـر أكثر من ثلاثـين عاماً ليخـرج كتابه إلى النـور، فالكتاب صدر سنة ١٩٩٠ وفي هـذه الرسالة قال قولته الشهيرة: "الإنسان أقوى من الحرية، والحرية أضعف من أن تغري الإنسان على السقوط».

المطبعي مع جلال الحنفي

وخـلال السنـوات الأربعين الماضيـة، أصدر أكثر مـن ثلاثين كتاباً وموسوعـة.. وارتبـط بعلاقـات واسعة مـع معظم ممثلـي الثقافة العراقيـة، بتياراتهـا المختلفـة: القوميـة، والاشتراكيـة والدينية، والليبراليـة.. ولم يزعـل أحـداً، ولم يغضب من أحـد لكن البعض، وبخاصة من لم يعجبه العجب ولا الصوم في رجب، يلومه وينتقده ويسفّـه مقالاته، لكن ذلك في اعتقـادي لا يستطيع أن يضر بصخرة المطبعـي بقـدر ما يـؤذي من يحـاول الاصطـدام بهـذه الصخرة.. أراه أنـا، إنسانـاً طيبـاً، ودوداً، يحـترم غيره، ويعترف بمجهودات الجميع إلى درجة أنه روّج لأفكار وسير عدد كبير من أعلام العراق في القرن العشرين..

اصدر (٢٠) جزءاً من (موسوعة المفكرين والأدباء العراقيين). كتب عن جواد علي، ومحمد بهجت الأثري، وسعيد الديوه جي، وحسين علـي محفـوظ، والدكتـور سامـيٍ سعيـد الأحمـد، وعبـد الرحمن التكريتي.. وغيرهم، لم ينس أحداً ولم يغبن أحداً.. وهذا دليل على أنه يضع الآخر ونشاطاته في مكانة متميزة من اهتماماته. قال عنه الأستاذ محمد بهجت الأثري، عضو المجمع العلمي العراقي، الكاتب والباحث والمحقق المعروف في سنة ١٩٨٦، إن حميد المطبعي "كاتب مـن طراز خاصـ، معنيٌ بأحـوال العلماء والأدبـاء والمتأدبين، وله بالتاريخ شغـفٌ.. مع نزعة إلى فلسفة ما يُقـرأ وحفظ واستحضار للألفـاظ والنصوصـ... كمـا أنه محـاور متفنّن لمن يحـاول فعالية محـاوره، ويحسن إثارته ليظفر منه بالصريـح من الرأي والقول، وهـو قبل هـذا وذاك، إنسان اجتماعي متفتح، يحـب الناس من كل جنسـ، مالم تكـن لهم نازعة إلى الشر تكـدر صفو الحياة، ويحـترم أقـدار الرجال، ويجتهد أن يضع كلاً منهم، فيما يكتبه في شؤونهم، في مكانته، كما يتراءى له...».

أمـا الفيلسـوف العراقي الشهير الأستاذ مـدني صالح، فقد قال عنه إنـه كاتـب لامع وهـو "في نظـري أحسـن رئيس تحريـر مجلة في تاريـخ الصحافـة العراقيـة حتى هـذه الساعة (١٩٨٥) مـن أزمنة الصحافـة الثقافيـة في الجرائـد وفي المجـلات، وإلاّ، فمـن في كل تاريـخ الصحافـة العراقيـة، أحـبَّ مجلتـه واحترمها مثلمـا أحبَّ حميد المطبعي مجلتـه (الكلمة)، واحترمها فأحـب واحترم، إكراماً لعينيهـا كل المبدعين الواعديـن في الثقافة أينما كانـوا: لافرق بين شرق وغـرب ولافرق بين شمـال وجنوب.. ولافرق بـين الواعدين إذا توصلـوا بالإبـداع: يستخـرج مـن المثقفـين أحسـن ماعندهـم للثقافـة ولايسأل المثقفين أجراً إلاّ المودة في استخراج الثقافة منهم ليعرضها على الناس في الجرائد والمجلات..».

مـن هـو الذي يبهجك حـين يحـاورك، ويمدحك، ويرفعـك في أعين النـاسـ، ويلاحقـك وأنـت منسيٌ، ويزيّـن لك الثقافـة، ويستدرجك إلى الكتابـة ويلح..ويلح.. ويلح.. من هو الـذي يحسن في تعامله مـع الناس في الساحة الثقافيـة العراقية، من هو الذي ينزل الناس منازلهـم ويعطـي لكل ذي حق حقه ويـرد الأمانـات إلى أهلها.. إنه أمـير التحقيق الثقافي في الصحافة العراقيـة.. ولا أحسن منه في كل العـراق.. ذلكـم هو حميـد المطبعـي.. هكذا يقول مـدني صالح ومـدني صالح، كمـا عرفته لا يجامـل ولا يحابـي، ولايقرض أحداً شهادة إلاّ بالحق.

اعترف بأنني لم أرَ المطبعي إلا بضع مرات.. واقصد لم أتحدث معه كثـيراً، لكنني أقرأ له.. وأعجب بما يكتب، ومازلت أتابع نشاطاته، وهو بالمقابـل كتب عني في موسوعته: "موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين»، الجزء الثاني، وأشار إلى كتبي في أكثر من مكان في موسوعته. بارك الله بالمطبعي، وأمدّه بالصحة، والقوة، ووفّقه لخدمة حركة الثقافة العراقية المعاصرة.

يعاني حميد المطبعي منذ سنوات عدداً من الأمراض التي جعلته حبيس بيته، إذ لا يستطيع التنقل من مكان الى آخر، ولا يستطيع مقاومة الأمراض الجسيمة، وهو يعاني من عدم القدرة المادية على المداواة والعلاج، والمطبعي لمن لا يعرفه من الأدباء الذين خدموا الثقافة العراقية الوطنية، ومن الذين عاشوا أعمارهم في اطار هذه الثقافة ومع أن المطبعي كان أديباً، يتوخى الإسهام الفاعل في الحركة الأدبية، إلاّ أنه في أهم مشاريعه الثقافية يبدو وكأنه يقدم مشاريع ثقافية وطنية، ذات توقيت جيد مناسب، ذات تخطيط ملائم للعلاقة بين السياسة والثقافة.

حميد المطبعي والثقافة العراقية..

حشدٌ من المبدعين العراقيين في عدد من الموسوعات

رزاق إبراهيم حسن

ولعل مشروع مجلة (الكلمة) من أبرز هذه المشاريع، إذ صدرت خلافاً للقانون الذي كان سائداً، لتؤكد بهذا الصدور ضرورة تغيير هذا القانون بما يحرض على الإبداع، ويكون دافعاً للتطور والتجديد، حيث التزمت المجلة جيل الستينيات الذي يعدُّ من الأجيال العراقية المتمردة في تاريخ الأدب العراقي، وربما يعدُّ من أبرز وأهمّ هذه الأجيال.

ولم تكن المجلة عند صدورها مستوفيةً للشروط القانونية، وبعيدة عن ملاحقة السلطة، فقد صدرت أول الأمر كمجلة ثم اضطرت إلى أن تصدر بصيغة حلقات أدبية، أي أنها تصدر بصيغة أجزاء أو حلقات من كتاب.

ومما هو لافت للأنظار أن المجلة لم تكن كشكولاً، ولم تكن بلا هوية وأهداف، وإنما صدرت بكونها تلمّ بالأدب الحديث، وتفتح أبوابها لكل المبدعين، ومن مختلف الأجيال والتيارات، ومثل هذا التعريف يثير ريب وشكوك السلطة خاصة وأن المجلة صدرت في الستينيات، حيث كانت هذه الأوصاف مريبة، وكانت جديدة على الساحة الثقافية العراقية، كما أن الظروف السائدة آنذاك كانت وريثة المراحل السابقة، حيث يعدُّ الكتاب مثيراً للتهم والشبهات، ودافعاً لإلقاء القبض والاعتقال، ووصف الفاعل على أنه من ذوي السوابق، ومن الذين تتوجب مراقبتهم وتعريضهم للاعتقال في كل مناسبة يحصل فيها تغيير معين، وتكون معرضة لاحتمالات معينة، وكان حميد المطبعي من الشخصيات التي عرفت بدور سياسي معين، وكان، سابقاً، قد أصدر منشورات وكراسات صغيرة منحازة لجهة معينة، ومن جهة أخرى كان يتولى تنفيذها، ويتولى بيعها وتوزيعها، وكان يهتم بإيصالها إلى المبدعين العراقيين ولأغلب الأدباء العرب في أغلب الأقطار العربية، وإيصالها إلى المستشرقين، وذوي الآراء والاجتهادات من العرب والأجانب، حيث كان كل عدد يثير موجات من النقاش والاختلاف وكانت مجلة الكلمة رغم تواضع شكلها الفني قد تمكنت في ظروفها أن تكون مركزاً مهماً لاستقطاب الأدباء العراقيين والعرب، ولأن تسد الفراغ الثقافي الناتج عن عدم وجود مجلة معنية بالأدب الحديث، وبالرغم من مرور سنوات طويلة على توقفها عن الصدور، إلا أنها لا تزال تواصل تأثيرها، وتذكر بدور ريادي، كما تذكر من خلال جميع الدراسات والمقالات عن أدب وثقافة الستينيات وإذ يرجع القارئ إلى مجلة (الكلمة) ايام صدورها، فإنه يلاحظ أنها رغم تواضع نوعية ورقها، وغلبة هذا الورق على صفحاتها إلاّ أنها كانت تصدر بلمسات فنية مبتكرة وجديدة تجعل منها أكثر إثارة واستقطاباً. وأكثر جذباً للقرّاء، وكانت إضافة إلى ذلك تهتم بإبراز السلبيات والعيوب في الوسط الثقافي، وتطرح البديل عن ذلك، ولم تكن مجلة (الكلمة) نتاج الأبراج العاجية، ونتاج الترف والأموال الكثيرة، وإنما كانت تستند إلى المقاهي وأدباء مقاهي النجف، وكانت ذات توجه ثوري متمرد، وهي بدأت من المقاهي وتواصلت معها، الأمر الذي جعلها مع التجديد والفقراء، وجعلها صوتاً لكل أديب متمرد، ولكل الأدباء العصاميين، الذين لا يملكون غير كتاباتهم، وغير ما تنتج أصابعهم من إبداع.

حميد المطبعي مع محمود العبطة وياسين النصير وأحمد فياض المفرجي

ولم تقف (الكلمة) عند هذه الأدوار المهمة والكبيرة، وإنما جمعت بين الدور السياسي والثقافي، وعززت من خصائصها وسماتها الوطنية إذ جمعت بين المثقفين العراقيين من مختلف والانتماءات الادبية والسياسية والفكرية، وكانوا يعانون من الصراعات والصدامات الدموية التي حصلت بين البعثيين والشيوعيين أوائل الستينيات، حيث كانت هذه المبادرة من ابرز عوامل قيام الجبهة الوطنية التي جمعت بين التيارات المتصارعة، وكانت استجابة قوية لإسقاط وتجاوز ما حصل من صراعات دموية. واستجابة ضرورية لتجاوز هذه المراحل، والجبهة الوطنية تكاد أن تكون إطاراً سياسياً لما حصل من علاقات ثقافية ومن حوارات ثقافية في مجلة الكلمة.

والحقيقة أن الجميع بين مثقفي الأحزاب والقوى السياسية، هم مشروع من مشاريع حميد المطبعي الثقافية، وقد انهار هذا المشروع بسبب عدم اشراك المثقفين فيه، وبسبب المصالح والمكاسب السياسية واستفراد حزب واحد بالسلطة، وتعريض الأحزاب الأخرى إلى الملاحقة والاعتقال، رغم أنه مؤهل للاتساع والاستمرار.

وقد واصل حميد المطبعي اسهامه في الثقافة الوطنية من خلال تنفيذ مشروع الجذور الذي يضم تحقيقات ودراسات ومقالات لشخصيات مهمة من جميع الطوائف والمكونات من الشيعة والسنة، ومن الكرد والمكونات الأخرى، وهذه الموسوعة المهمة قدّمت شخصيات تصلح نماذج للعمل الوطني العراقي وتصلح لأن يُدرس هذا العمل من خلالها، وقد اختارها المطبعي على أنها رغم كثرتها إلاّ أنها تمثل الثقافة العراقية في مختلف نماذجها ومكوناتها، وإنها عملت من اجل وحدة وثراء هذه الثقافة أيضاً.

وبعد هذه الموسوعة الكبيرة، وجد المطبعي أن العراق لا يتمثل بما نشر في مجلة (الكلمة) وما قدّم في موسوعة جذور، إنما يتمثل بآلاف الأشخاص الذين برزوا في مجالات أخرى، كالطب والهندسة والأدب والإعلام والتعليم وعلم النفس والاجتماع والتاريخ والجيش والشرطة ورؤساء العشائر وأصحاب المعامل والمصانع والترجمة وغيرها، حيث قدّم تعاريف عن مئات الشخصيات في الثقافة..

وقد واصل حميد المطبعي مشاريعه الثقافية الوطنية بإنجاز جزئين كبيرين من كتاب موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، وقد جاءت تتويجاً لعمله في مجلة (الكلمة) و (جذور)، وتوسيعاً لهذين المشروعين، وتجسيداً لفهم المطبعي للثقافة الوطنية على أنها مجموع كل العراقيين، وإنها وحدة وتاريخ ومستقبل العراق، مع مزيد من المشاريع، ومع مزيد من إرادة البناء والتقدم.

إن مشاريع حميد المطبعي الثقافية لم تكن مطروحة للتنظير لما هو عابر ومؤقت، ولا لمن يدفع من السياسيين والتجّار ولمن يريد أن يظهر بمظهر العراقي الأصيل، وهو غير ذلك، وإنما جاءت هذه المشاريع استجابة لكل عراقي أصيل، ولأنها عراقية أصيلة، فمع أن المطبعي طرح هذه المشاريع دون اعلام مواكب لها، ومساندة لبرنامجها ولأهدافها، إلا أن الذين حملت اسماءهم يتفوقون من حيث العدد على اسماء اعضاء أيّ حزب سياسي، ولعلهم جاءوا طوعاً لحميد المطبعي لكي يضع اسماءهم في هذه الموسوعات التي تعدّ من أهم المعاجم في تاريخ ما يمائلها من معاجم الأسماء، وهي في كل الأحوال مطروحة لمن يريد الاستفادة منها، وتقديم ما يتصل بها من مشاريع خالصة للثقافة الوطنية.

حميد المطبعي فارس (الكلمة)

باسم عبد الحميد حمودي

وضعت أمامي وأنا أشرع في الكتابة عن أبي بسام حميد المطبعي، كدساً من الأعداد المتوفرة لدي من مجلة (الكلمة)، مجلته وموسى كريدي، ومجلة المثقفين العراقيين والعرب منذ عام ١٩٦٧ حتى يوم إغلاقها عام ١٩٧٤.

ساعتها أحسست بهبوب نسمات من الحرية الفكرية وبهمة الشباب تتجدد، فها هي (الكلمة) تتجوهر أمامي مجدداً وقد ركناها لسنوات دون أن نعود إليها إلا لبحث أو لاستشهاد. ما صنعه حميد المطبعي في (الكلمة) أكثر من الكثير في جو الأدب العراقي والعربي، فقد كانت مجلة رائدة في انتفاضتها على أطر النشر التقليدية آنذاك، وفي قدرتها على جمع أدباء التجديد العراقيين والعرب على صفحاتها في جو سياسي وثقافي مدلهم ليس للأمل بالنهوض السياسي والفكري من كوة واحدة.

صدرت (الكلمة) كحلقات ثقافية مطلع عام ١٩٦٧، واحتفى بها الأدباء الشبّان، وكان التوزيع باليد أو بالبريد، وما يجمعه صاحب الكلمة يكاد لايسد مصروفاتها، وقد ظلت هكذا حتى انتعش وضعها لفترة بعد انقلاب ١٩٦٨ ثم حاربتها وزارة الإعلام لعدم سيرها على مسطرة الدولة الفكرية، فقرر حميد المطبعي (صاحبها) وموسى كريدي (رئيس تحريرها) إغلاقها عام ١٩٧٤ وكان الله يحب المحسنين.. إذ لم يكن في طاقة حميد – موسى الاستمرار في اصدارها بعد منع الاعلانات عنها واشارات الغضب الواردة من هذا المسؤول أو ذاك! بذلك اختتم حميد المطبعي رحلة حياة (الكلمة) التي لم تكن مجلة ثقافية عادية، بل كانت مجلة جمعت في حينها كل رموز الوعي السياسي والثقافي على تناقضاتهم واحترابهم، وقد قلت عنها ايامها أنها كانت تشكّل نموذجاً للجبهة الوطنية ثقافياً بعد ما كان السياسيون يحتربون، وقد فتك القوي فيهم بالضعيف دون أن يأخذ الحق له، جاءت (الكلمة) لتساوي وتجمع، وتشد من أزر الجميع ليكونوا وقد أحس الجميع بضرورة الكلمة، مجلة ونهجاً نجح في تطوير النشاط الإبداعي واحترام التجارب الجديدة في القصة الحديثة وفي البحث عن المواهب الشعرية والتبشير بقصيدة النثر اتجاهاً شعرياً يطوق قصيدة التفعيلة السيابيّة دون أن يبتعد عن الاحتفاء برموزها الذين ساندوا تجربة الكلمة، أمثال البياتي وشاذل طاقة وسعدي يوسف وبلند الحيدري وسواهم.

كان التوزيع عن طريق جمع الاشتراكات السنوية مباشرة أمراً اكثر من مهم، وكان بدل الاشتراك ديناراً واحداً ومن شاء أن يزيد فليفعل، وخلال وجودي في مدينة الدعارة لثماني سنوات (١٩٦٥-١٩٧٣) كان الطريق الى النجف الأشرف لاحباً، فأما أن أرحل في دورة الخميس الى المدينة المقدسة لألتقي محمود البستاني وموسى كريدي وعبد الإله الصائغ وموفق خضر وعبد الأمير معلة وحميد المطبعي وحميد فرج الله وسواهم في مقهى مختار، أو يذهب إليه أحد المدرسين مثل الأستاذ محمد رضا محمد أمين أو ناصر الحمداني أو الشهيد جميل أمانة أو الشهيد عدنان حسين (والد الشاعر فارس عدنان) ليعطوا الاشتراكات التي نجمعها من تجّار ومثقفي الدعارة لحميد أو لموسى دعماً للمجلة الرائدة وحباً في استمرارها.

ينشد حميد المطبعي في قصيدته (تأسيس) المنشورة في العدد الرابع ١٩٧٣ و(الكلمة) على وشك الغياب فيقول :

أيها الذين تديرون رؤوسكم الى الوراء، ضعوا الضماد فوق أنوفكم، منكم تواسد ماكنة الضحك. تعلمني الشوارع. المناشير. ونصطف في أكاديمية القراءة. في الإذاعة. وفي حدائق الأمة تشخر أرواحنا: السنابك السنابك، وأهجموا، بلغوا القبائل بأسماء الثوار. تقاسموا الانذار. الجامعات تنتهي. براميل الحنطة تفوه بالأسواق.. آتية هي المواثيق. آتية هي النساء أطلق فضائي واحترس)

بعد هذا المفتتح التجريبي يبني قصيدته على متضادات فكرية بلغة ساخرة ينطلق في ملاحظات موحشة مستفزة نختار منها الملاحظة الثامنة حيث ينشد :

(مرة في أرتيريا رأيت النساء يصبغن وجوه أطفالهن من ثمر السدر. والشيوخ يبيعون السيوف لبعض جمالهم. ومرة دعت بعض العشائر الى عسكرة اللغة أذن بلا أحصنة، رأيت الوطن العربي، ثكنات، ورئيس عشير، وأمعات.)

وفي ختام هذه القصيدة يضع المطبعي مقطعاً يشير الى أنه ينبغي أن يقرأ بترتيل ديني فيقول :

ماء. ويقف الطير المذبوح في جسدي. هل أسلمتم. اسكنوا الحرم المبتلى. وأبنوا له مشارف من رؤوس أطفالكم ودعوا الطيور ترعى المواكب. ثكنات. ثكنات. انشروا فوق أرحامكم من طعم الفرات جدائل من ورق التين..)، هكذا تمضي القصيدة مرتلة متشابكة الجذور والانين والصور محاولة أن تستنهض من تناقضات الصور متاهة شعرية جديدة.

جمعت (الكلمة) أبرز وجوه الأدب والفكر في العراق والعالم العربي، وشارك المترجمون المخضرمون (مثل جميل حمودي وشفيق مقار وخليل الخوري وسواهم، والشباب من أمثال زهير الجزائري وميعاد القصاب وصادق باخان وغيرهم) في ترجمة النصوص، فيما كانت (الكلمة) ميدان قصص جديدة ومسرحيات لعبد الملك نوري وفؤاد التكرلي ونزار عباس وموفق خضر وجمعة اللامي وعشرات غيرهم، وكان الشعر سيد (الكلمة) ممثلاً بقصائد البياتي وسعدي يوسف والكمالي والحيدري (كما أسلفنا) وممدوح عدوان وخليل الخوري ونزار قباني وياسين طه الحافظ وحميد سعيد وسركون بولص وعشرات غيرهم من رجال الموجة الجديدة.

لم يقتصر نشاط حميد المطبعي على الكلمة كمجلة ومشروع ثقافي تقدمي، بل أسس لمجموعة كتب مسلسلة عن حيوات المفكرين والكتاب العراقيين الذين حاورهم أمثال: عبد المجيد لطفي وجواد علي وعبد الرحمن التكريتي ومهدي المخزومي وبهنام أبو الصوف ومسعود محمد وكمال مظهر، وكان معظم هؤلاء في ملتقى الروّاد الذي دعا إليه وأسسه في التسعينيات من أحلام المطبعي التي تحققت لفترة ثم عفى عليها زمان السياسة والأذى.

وكان اصدار المطبعي لـ(موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين) تجربة شاقة وناجحة في البحث والتبويب والملاحقة والتدقيق حتى استوت التجربة على أحلى ما يكون لتؤرخ لفكر وتجارب عبر العصور الحديثة.

وبعد فحميد المطبعي شجرة خيّرة نبيلة تساقط منها رطب المعرفة والأدب الثقافي المثمر للخير، وينبغي علينا ألا نرميها بحجر بل إن نرعاها ونمنحها الحب والشكر على ماقدمت للفكر العراقي ولأهله.حميد المطبعي أقبّل يديك العاريتين ووجنتيك الذابلتين وأرجو لك الصحة والحياة الطيبة وأنت لم تزل تعطي أيّها الصديق العزيز.

«حميد المطبعي»الكبير في كلِّ شيء

عالية طالب

أكثر من ثلاثة عقود مرّت وأنا أحمل صداقة فريدة من نوعها تربطني بالمفكر الكبير"حميد المطبعي"صداقة تشبه الانتماء والتجذر والتوحد والإلفة العجيبة، في بدايات تعرّفي به بعد عودتي من سنوات غربة في بيروت كان صديقاً ودوداً ثم أصبحنا مع الأيام ثنائياً مترابطاً ثم بات عاكساً لذاكرتي بأوقات وأشخاص وأمكنة وأحداث وحوارات لا تنفك عن ملازمتي أينما أكون، وبعدها أصبح هاجساً من قلق أخشى عليه من ويلات زمن بدأ يصدأ في أغلب زواياه، ولاحقاً أصبح أبداً افتقده وأنا اشعر بأنني أمّ تفدق حنانها على كائن من مزايا لا يحمل توصيفات الزمان والمكان بل يتعداها الى مديات أعرف حجم تكويناتها جيداً في نفسي، يحمل الوداعة والضحكة المجلجلة والمعرفة والفكر والذاكرة النشطة والرؤية الاستبصارية والتحليل الواعي والفهم المتجدّد والمقدرة على انتزاع ما نتوقف عن البوح به لأنفسنا، لكننا معه نصغي لذواتنا التي تريد أن تقول كلّ شيء دون تردد.

إنه صديقي الأثير وأخي الكبير وأبني الغالي وروحة تفقدي لذاكرتنا المشتركة التي تختلف ولا تفترق عن نقطة هائلة تحمل أسم محبة العراق، دمت كما أنت وكما يبحث عنك الآخر فيجدك في كل المرافئ الآمنة التي نحطّ فيها في زمن الوصول لنردم صدأ الزمن المتكفئ بجمال ودعة وتألق.

حميد المطبعي هذا الكائن المتفرد بالمعرفة والتحليل والاستكشاف والتجديد والبراعة واللغة المطواعة والخيال المبدع.. يعيش وحيداً، مريضاً، لا يغادر منزله، ينتظر صوت الأصدقاء عبر الهاتف وزيارتهم عندما تسنح الفرص، يعاني توفير ثمن الدواء وزيارة الطبيب والرعاية الصحية الحقيقية، لا يسأل عنه الكثيرون، فالكل في سباق مع البحث عما يؤمن العيش، لا تتفقده وزارة ثقافة ولا نقابة ولا اتحاد ادباء إلاّ بما تسمح لها ميزانياتها المتباينة بين واحدة وأخرى بالإمكانات التي لن نتحدث عنها، لا يعتب على أحد، فتلك ليست طريقته بل يجد الأعذار لمن ينشغل عنه، صومعته في أعلى بيته بلا تبريد وتدفئة والهواء من شبابيكه المفتوحة يعيد له رائحة البراري التي يشتاق لجولاته فيها.

إنه"حميد المطبعي"الذي تناسته المؤسسة الرسمية وترسخ في بصمة المشهد الثقافي والفكري والإعلامي العراقي بكل ثبات وصلابة. تحية لك أيها المتميز بالكثير.

العدد (4151)
السنة الخامسة عشرة - الخميس
(8) آذار 2018

حميد المطبعي يراسل جيفارا ويتمنّع على «الوباء» بالسخرية

عبد الزهرة زكي

قبل مباشرتي الكتابةَ في هذا المقال كنت قد شاهدت، عبر مواقع التواصل الاجتماعي وبالمصادفة، صورةً مؤلمة وقاسية بما تبعث عليه من حزن، لقد كانت صورة للأستاذ الكاتب العراقي حميد المطبعي وهو على سرير المرض بوضع يبدو فيه أقرب إلى الغارق في رقادٍ عميق، وأمنّي النفس بأن لا يكون فيه بغيبوبة.

صاحب (الكلمة)

حميد المطبعي، ومن خلال مجلته (الكلمة)، وهي أشهر إنجازاته في الثقافة العراقية، قدّم نفسه كفاعل ومحرِّض من أجل الدفع بالتجديد الشعري، وضمناً الثقافة بمناحيها المختلفة، إلى مَواطن لا تكتفي بالمتحقّق من الجهد الريادي والخمسيني الشعري في العراق. كان يمضي إلى هذه الأحلام بتصورات هي مزيج غريب من نزعات يسار تداخلت بتصورٍ قومي واقترنت بسلوكٍ أقربَ إلى الليبرالي وإن لم يقصده، وكان هذا قد حصل أثناء فسحة زمنية بدت كما لو أنها خارج سياق الزمان العراقي، إنه الزمان السياسي، زمان منشغل بتنمية التقاليد وتضخيمها حتى تستحيل كابوساً مستبداً.

لقد ظهرت (الكلمة) في مطالع السبعينيات كمجلة تريد أن تكون نافرة، إنها بعضٌ من روح ستينيةٍ. لم تستمر بها تلك الفسحة الزمنية طوَيلاً؛ ففي منتصف ذلك العقد توقفت المجلة، ولم يشفع لها حتى محاولتها مسكَ العصا من منتصفها، ما بين النفور من الاندماج والتشابه وبين الاقتراب من التماثل والذوبان.. كان لا بد من أن يكون النصف الإيديولوجي الداعي للتماثل وحده الفاعلَ والباقي، يجب كسرُ النصف الآخر النافر والاستغناء عنه، هذه هي مشيئة السياسة الحاكمة. توقّفت المجلة، وتوقّف إثرَها أيُّ طموح لإخراج أية مجلة ثقافية تحلم بالزوغان على ذلك السياق، وكان سياقاً في أوج اندفاعه نحو التعاظم، إنه زمان القبض الحكومي على الثقافة كلها، وليست المجلات حصراً.

في غمرة تلك المحاولات لم يكتفِ المطبعي بجهده الكتابي الذي عُرف به آنذاك كشاعر منحاز لقصيدة نثر، ولنزوع يساريٍّ جديد ذي هجنة ليبرالية حتى وهو في مساحته القومية، ساعده هذا الخليط في أن يكون قريباً من الجميع، هكذا وفّر من خلال المجلة مجالاً طيباً لجهود كثيرين سواء من ستينيي وسبعينيي العراق ممن كانوا أشدّ اندفاعاً نحو التغيير كما يقوون عليه وليس بالضرورة كما يحلمون به.

توقفت المجلة، أو أُوقفت، لست متأكداً، وظلَّ حميد المطبعي بعدها، وربما طيلة سنواته التالية، وكأنه كسيرَ الجناح؛ المطبعي لم يرد أن يطير، سواء بمفرده أو مع سرب، إلاّ بجناحه هو، وكانت المجلة الخاصة به هي ذلك الجناح الذي افتقد إليه.

كان يريد، كما أتوقعه، أن يدير بنفسه وتصوراته مشغلاً ثقافياً للتغيير، وحين أخفق في هذا، في مواصلة إدارة مجلة وئدت، فقد ظل يحرص على حياة تكتفي بالهوامش للنأي به عن الواجهات. لقد بقي طائراً يسعى على الأرض فيما ظلت عيناه محدِّقتين محلِّقتين إلى فضاءٍ لم يعد ممكناً بلوغه.

الوباء العام

مع تلك السنوات كانت السياسة تدفعُ بأعراض (وباء) إلى الظهور والانتشار، إنها أعراض مرض بدأت بإرادة أن تطولَ كلَّ شيء. كان وباءً، وكانَ على رجلٍ مثل حميد الطبعي أن يتمنّع، بما يستطيعه، على تلك المباءة.

أمراض السياسة هي غير هذا المرض الجسدي الذي يعانيه الكاتبُ منذ عامين تحت أعباء شيخوخته وكما تقدمه صورته الأخيرة التي أمامي. تلك أمراضٌ ومباءةُ سياسة وسلطة حين تكون السلطة السياسية في أشدِّ حالاتٍ غلوّ طغيانها وشراهتها لازدراد كل شيء.

قبل عامي مداهمة المرض جسدَ المطبعي، وقبل عقد أو عقدين أو ثلاثة، كان الكاتبُ في أوج عافية جسده، وكان يدرأ عنه ذلك (الوباء العام) بالسخرية منه ومن سواه مما يصادفه ويستحق السخرية.. وكانت السخرية وسيلةً للالتفاف على المباءة وقناعاً للتواري عن الوباء..

خلَّف ذلك (الوباء) آثارَه وندوبه على أجساد كثيرين، وثلم من كثيرين شيئاً ما. المناعاتُ، وحيلتُها، لا تُتاح للجميع، لكن حميد وجد مناعته بالسخرية. كان يريد التحصّن بها، فظلّ في حياته يسخر، حيث الجديّة داع للارتياب، مكتفياً من الكتابة بما قد يعصمه من (الوباء) من جانب وبما يدرأ عنه الشبهة من جوانب أُخَر، فيما هو عملَ على التخفّف كثيراً من صورته كمحرِّض وداعية للتغيّرات الراديكالية في الآداب والفنون، كما ثبتّتها مجلته (الكلمة)، لصالح الانخراط في كتابة توثيقية تحاول أن تكون محايدة معظم الأحيان وكتابات أخرى صحفية عابرة كان بعضها ثمناً لابدّ منه لدرء الشبهات..

كانت السخرية هي المسافة ما بينه وبين ذلك (المرض الوباء)، إنها مسافةُ وهمٍ حين لا مناص إلاّ الوهم..

سخرية حميد المطبعي تمتزج فيها نباهة المثقف بمهارة المرء النجفي الفراتي الذي يتقن فنَّ التعبيرات المواربة وذلك كلما اضطر هذا المرء إلى أن يمتنع عن التعبير الصريح خجلاً أو خشيةً أو إمعاناً بالنقد وقسوته.

سخرية حميد كانت تعينه في الزوغان عن تلك (المباءة)، لكنه في الصورة التي شاهدته فيها كان راقداً تحت وطأة مرض آخر، هو غير ذاك الذي أراد تفاديه، هذا مرضٌ مما لا يمكن تفاديه بالسخرية، ترى هل تقوى الجديّة على دحر مرض الجسد؟

السخرية دريئة لتمرير الجديّة

في هذه الصورة كان المطبعي نائياً على سريره بعيداً عن زوّاره. هذه هي المرّة الأولى التي أراه فيها صامتاً تماماً.

كان حميد المطبعي دائماً ما نلقاه يتكلّم ساخراً وجاداً.

وكان على المرء المستمع إليه، بعد هذا، أن يميّز الخيطَ الواهي ما بين جدّية حميد وسخريته.

إنّه يريد أن يكون جادّاً، وكان يرى السخرية دريئةً لتمرير الجدّية التي كان يخشى أن يُعرَف بها.

لقد كان على أيِّ محاور، وهو يستمع إليه، أن يصغي إلى ما لم يقله حميد، وأن يلتقط هذا الذي لم يقله.

القولُ الساخر بطانةٌ لآخر جادٍّ غير مَقول.

كان يزورني في جريدة الجمهورية أواخر التسعينيات. كان كثيرٌ من أحاديثنا ينصرف إلى (الكلمة)، مجلته التي ما أن تُذكر حتى يمتلئ هو زهواً وفخراً بها وبعمرها القصير كعمر (كواكب الأسحار) بتعبير من شاعر عربي قديم، وكان الأكثر إمتاعاً من بين أحاديثنا هو روايته، التي يحرص على أن يرويها بسحر خاص، عن ظرف المجلة.. لقد روى لي مرة كيف أنه بظروف غامضة أوصل عدداً منها إلى جيفارا، وكيف أنه تلقّى تحيةً من جيفارا عن تلك الهدية.

ربما كان (جيفارا) الذي أوصل له ذلك العدد من (الكلمة) صورةً ومثالاً للكيفية التي كان يتمنّى حميد عليها قارئ المجلة وكتّابها ومحرريها، ربما.

أحسَبُ أن الحلم المتبقي، والذي لم يتحقق كاملاً من (الكلمة)، كما يطمح إليه صاحبها، كان هو الجانبَ الأساس من مشروع المجلة التي سعت إلى تقديم نفسها كمجلة طليعية في الأدب. إنها مساحة ظلت غائبة بين دوريّات الثقافة العراقية في حينها، وبظهورها استقطبت شعراء وكتاباً مختلفين. لكن صروف السياسة لا تحتمل حتى تركَ هامشٍ مهما كان ضيقاً لتلك النزعات التي يمكن أن تعصمَ الأدب والثقافة من سوء استخدامهما، هكذا اندحرت (الكلمة) فجأةً مثلما ظهرت؛ إنها مثل أيٍّ وعد لم يُنجَز، ودائماً كانت الحياة في العراق محضَ وعودٍ لا تتحقق ومطامح تتنازل عن عليائها فتدنو إلى مجرد الرضا بشيء بقناعة أن هذا الشيء مهما كان ضئيلاً يظلّ أفضل من اللاَ شيء العظيم.

اندحرت (الكلمة) المجلة، وبقيت (الكلمة) السخرية الحاذقة التي احتفظ بها حميد، مثلما كان قد احتفظ بها زميله وصديقه الكاتب الراحل موسى كريدي شريكه في تحرير (المجلة). كان موسى هو الآخر يتستّر بالسخرية على الجدِّ، ويعبّر بها بما لا يريد أن يؤخَذ منه على محمل الجد.

وعدٌ لم يُنجَز

لكن حميد المطبعي ظلّ يريد أن يظهر بهيئة ذلك المثال الذي كان نموذجه الستيني السبعيني هو (جيفارا)، وكان يريد ممَن يحترمهم ويثق بهم أن يروه بتلك الصورة، فيما كانت الحياة تدفع به، وبنا جميعاً، إلى التخفّف من أيّة صورة وأيِّ مثال، وإلى الدفع بهما، بالصورة المتمناة والمثال المتطلَّع إليه، ومواراتهما في أعماق سحيقة يجب أن لا تُرى، فكانت السخرية والهزل كفيلَين بذلك.

لقد بقيتُ التقي بحميد باستمرار، حتى قبل بدئي العمل في جريدة الجمهورية عام ١٩٩٣، فواقعاً بدأ تعارفنا بلقاء مصادفة جمعتني به حين كنت في زيارة صديق بعمله الصحفي مطلع التسعينيات. ومنها، مذّاك، وفي كل مرة التقي فيها حميد المطبعي، تأخذ بالحضور أمامي صورة المثقف الستيني خارج الستينيات، في ما بعدها، إنها صورة تمتزج فيها المكابرة بالانكسار، الإرادة بالخذلان، الإقدام بالتروّي.

والستينيات، في تاريخ الثقافة العراقية، ليست مجردَ تاريخ مستلٍّ من الزمن؛ الستينيات كانت وعداً ونموذَجَ مشروع ربما انتكس قبل أن تتجسد هيئته، وربما ذهَب في مجرى غير ما كان يَعدُ به.

كان كثيراً ما يقول لي كلما اكتظّ المكان بزائرين قد لا يعرفهم: لا أريد أن أتكلم!

فلا يحار بمثل هذا الحال؛ إنه يتّخذ مجلساً له عند منضدة لمحرر لم يأت بعد، ويبدأ يكتب.

كان يكتّب ما لا يريد قوله، وكان يودع بعضَ ما يكتب عندي.

"إنها ليست للنشر، كما تعرف، وليست ليقرأها أحد». يقول قبل أن يغادر.

"يوماً ما، أنت تعرفه حتماً، تستطيع التصرّف بها». كان يؤكّد هذه الجملة دائماً، وكنت غالباً ما أكتفي بابتسامة، وقد أردّ عليه بالآية:

(يرونه بعيداً ونراه قريباً)، فتجلجل ضحكتُه، مكتفياً بها كتعليق صامت ربما كان يريد به عدم التمادي بإشارات البوح.

لكن ما أكثر ما كان يبلغ باب الغرفة بالطابق الرابع في بناية الجريدة، ثم يعود إليَّ بمنتهى الجدّية ليأخذ ما أعطاني إياه، ويمزّقه بعدما يترك لي وقتاً مناسباً لقراءته. إنها تحسّبات حميد المطبعي وتحسبات أي عراقي لا يريد أن يخطئ آنذاك، في حياة غالباً ما يكون الموت فيها ثمناً لخطأ حتى وإن كان خطأً تافهاً.

يضبط حميد متى يكون جاداً، ومتى يواري جدّيته خلف السخرية والدعابة.

ينتهي الحديث، وتنتهي حياة الورقات والكتابة عليها. لم يتبق من أثر لما أتلف من تلك الأوراق سوى كلام ساخر وضحكات أشدّ سخرية.

لقد بقيت بضع أوراق لم تنل منها تحسّبات حميد المطبعي. كان ما كتبهً حميد في هذه الأوراق التي تركها عندي بخطّه الأنيق يخصّني شخصياً. إنها أوراق كتبها بجلسات مختلفة تكرّرت بأوقات غير منتظمة على مدى شهر تقريباً. كانت كتابةً عن انطباعات وتصورات وآراء نقدية عني شاعراً وعمّا صدر لي آنذاك، كان حميد يختمها بتنبؤات يرسم فيها مستقبلاً يتوقّعه أو يثق به، وما أشدّ افتتانَ حميد بدور الرائي المتنبئ.

كلما قلّبت تلك الأوراق فإنّ شيئاً ما يظل يشدّني إلى مطالعتها كما لو لم أقرأها من قبل، ثم لا ألبث حتى أعيدها حيث كانت. لست واثقاً للآن ما إذا قد حانت إمكانية التصرف بها كما طلب مني ذلك بخصوص الأوراق كلّها، التالفة منها والمتبقية، وكما وعدته باحترام طلبه والتقيّد به.

×××

قبل أن أنتهي من كتابة هذا المقال كنت أواصل التحديقَ، حزيناً، بصورة حميد المطبعي.

إنها صورة يستسلم فيها الجسد، جسد الكاتب، للمرض، ويركن الكلام إلى الصمت، وتنهزم السخرية أمام جبروت الألم.

إنها صورة حميد وقد ركن إلى جدّيةٍ لم يخترها هذه المرة.

ليت حميد المطبعي يفيق من هذه الجديّة المأساوية التي تضعه فيها تلك الصورة المؤلمة.

حميد المطبعي وجيل ردّ الكلمة

شجاع العاني

حميد المطبعي، رجل عصامي الثقافة حصل على ثقافته بنفسه وعن طريق بيئته، من دون أن يحصل على شهادات عليا من جامعة أو كلية وربما كان عمله في الطباعة أحد العوامل الكبيرة في تحصيله المعرفي. وقد أصدر المطبعي ما دعي فيما بعد بمجلة الكلمة، برغم أنها منشور دوري كان يصدر في حلقات. وبرغم أن الرجل لم يكن من ذوي المال يساعده ولا النفوذ السياسي، فإنه شقّ طريقه وكذلك مجلته وسط صعاب عدّة بفعل اصراره على المضي في مشروعه الثقافي. لقد كانت مجلات وزارة الاعلام آنذاك، حكراً على الأقلام التقليدية وبعيدة كل البعد عن الأدب الحديث، ومن هنا جاءت الكلمة في مرحلة كان الادباء الشباب أحوج ما يكونون الى مطبوع يعنى بإبداعهم الادبي والنقدي، فوجد هؤلاء الأدباء في الكلمة ما يلبي طموحهم الى النشر والتعريف بنتاجاتهم، وقد ساعد المجلة على الانتشار وحرص صاحبها حميد المطبعي، على ايصالها الى اماكن بعيدة عن العراق، فقد كانت تصل لندن وموسكو والقاهرة، وكان الذين يكتبون فيها أعضاء اتصال مع القرّاء. بسبب حرصهم على نجاحها وتطورها، وما زلت اذكر كيف كنت أوصل المجلة الى جيل الستينيات من الأدباء المصريين، وأنا على ثقة أن مجلة (كاليري ٦٨) التي أصدرها الأديب المصري ابراهيم منصور، والتف حولها معظم الكتاب والشعراء الشبّان، مثل ابراهيم أصلان وجميل عطية ويحيى الطاهر عبد الله وابراهيم بوسنة وغيرهم، صدرت بتأثير من مجلة الكلمة العراقية. وما زلت اذكر كيف احمل الى صديقي صبري حافظ اعداد المجلة وأطلب منه كتابة نقود على قصص بعض هذه الأعداد، وما زلت أذكر ايضاً أن المستشرق الانكليزي الذي ترجم قصة يحيى الطاهر عبد الله (جبل الشاي الأخضر) الى الانكليزية، جاء يطلب مني ايصال اعداد مجلة الكلمة إليه.

والى جانب الظروف المالية الصعبة التي عانتها المجلة، فإنها كانت ملاحقة من دوائر الأمن التي وضعتها نصب عينيها برغم الحرية النسبية التي نستشعرها في ظل حكم المرحوم عبد الرحمن عارف، الذي ساعد المجلة مالياً حين قصده المطبعي. وما زلت أذكر كيف اوقفت الشرطة أو دوائر الأمن المجلة عندما نشر برهان الخطيب، فيها قصة تصور ضابط شرطة مرتشٍ يعتاش على دماء مومس بأن يتلقى منها الرشى ليسمح بممارسة عملها.

وبي رغبة شديدة أن أروي واقعة جرت لنا أنا وحميد المطبعي والمرحوم عبد الأمير معلة، فلقد دخل المطبعي علينا في مقهى البرلمان مقابل جامع الحيدر خانة، وهو يحمل دورة كاملة من المجلة كان قد جلدها، وراح يجلدنا بسياطه، قائلاً إن الشرطة اوقفت المجلة وإنكم لا تساعدوني وأنا أعمل وحدي.. إلخ، فقمنا نحن الثلاثة وأجرّنا "تاكسي" وحين سألنا الى أين، قلنا له إلى القصر الجمهوري. وبعد دقائق دخلنا القصر الجمهوري وتوقف التاكسي على مقربة من مكتب الرئيس عبد الرحمن عارف، ودخلنا نحن الثلاثة على رجل عسكري يحمل رتبة لواء كما أذكر وطلبنا مقابلة الرئيس، وحاول أن يبعدنا عن المقابلة قائلاً إن المسألة الأمنية ليست من اختصاصات الرئيس، فقدّم له المطبعي دورة كاملة من المجلة كتب عليها إهداءً له مصرّاً ونحن معه على مقابلة الرئيس، فأخذ السكرتير عنوان إقامتنا وأرقام هواتفنا ووعدنا بالاتصال بنا لغرض المقابلة. كان هذا في حزيران من عام ١٩٦٨. وقد وقع انقلاب عسكري أطاح بعارف بعد أيام من طلبنا للمقابلة. ولست ادري لماذا انساق الى تذكّر أن رئيس الوزراء في زمن عارف المرحوم عبد الرحمن البزاز، العميد الأسبق لكلية الحقوق، شرّع قانوناً لمنع الضوضاء يمنع استخدام مكبّرات الصوت وزمور السيارة بعد التاسعة مساءً، كأني اترحم على زمن للسعادة والبراءة لن يعود ابداً.

المطبعي في شبابه مع عزيز السيد جاسم

كتب ونشر في مجلة الكلمة معظم جيل الستينيات من شعراء وقصاصين ونقّاد، بل إن المجلة بلورت وساعدت في نشوء هذا الجيل وتطوره بحيث يمكن أن يدعى (جيل الكلمة) وما ان رأى ابناء الاجيال السابقة من الأدباء نجاح المجلة واستمرارها حتى اقدموا على النشر فيها. وهكذا فإن اسماء شعراء وكتاب كبار كالبياتي ونجيب المانع وآخرين، راحوا ينشرون في الكلمة لتصبح مجلة كل الأدباء العراقيين وليست خاصة بجيل واحد.

لقد دعيت هذه الموجة من الادباء أو ما احدثه الجيل بالموجة الصاخبة تارةً وبالروح الحيّة تارةً أخرى، لكن من المؤكد ان ثمة مولداً كبيراً أوجده الستينيون شعراء وقصاصون ونقّاد، وكانت مجلة الكلمة اكثر من سلك في هذا المولد الكبير، الذي وضع لبنات أساسية في حركة الأدب الحديث ونقده، بعد جيل الرواد من الشعراء الذين كتبوا القصيدة الحرة أو الجيدة، وربما كانت اكثر هذه اللبنات اهمية هي ظهور مجموعة من النقّاد المتخصصين في الشعر والقصة، بعد أن كان النقد في الخمسينيات مجرد محاولات بسيطة غالباً ما تجود بها أقلام الأدباء أنفسهم.

لم يقتصر جهد المطبعي على اصدار مجلة الكلمة، بل أسهم هو أيضاً في حركة الأدب والنقد، فأصدر مجموعة من السير الأدبية لأدباء عراقيين مالئاً بذلك فراغاً معرفياً لا يُستهان به.

وإذ نستذكر مجلة الكلمة وجيل الكلمة، فإننا نحيّي المطبعي الذي أصدر هذه المجلة، ونتمنى له الشفاء العاجل والعمر المديد والعطاء المزدهر، كما نحيّي كل اولئك الأدباء الذين كان لهم الدور في دعم هذه المجلة والمساهمة في ازدهارها وتطورها.

عراقيون
من زمن التوهج

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

الاخراج الفني: خالد خضير

طبعت بمطابع مؤسسة
المدى
للإعلام والثقافة والفنون

WWW. almadasupplements.com

يكاد حميد المطبعي أن يكون شـبيهاً بسـقراط في كل شيء، في هيأته كما رسـمتها المدونـاتِ التأريخية الاغريقية، وفي أسـلوب حياته وتقشـفه وسخريته وتهكمه وتوليده للأجوبة من أسئلة جدلية لا نهاية لها وصولاً الى الحقائق المغروزة في النفوس، فقد كان سـقراط مؤمناً (بأن المعرفة تذكر) وإن وجود النفس سـابق على وجودها الدنيوي، إنها في عالم علوي عقـلي الهي تعلـم كل شيء، وعندما أهبطت الى العالم الأرضي المادي الدنيوي نسـيت كل شيء، وما عملية التعلم إلاّ عمليـة تذكـير لهذه النفس بما كانت تعلمه في عالمها العلوي، وهذا التذكير هو عملية توليد، فمثلما تنتزع القابلة المولود من رحم أمه، كذلك تفعل الأسئلة الحوارية الجدلية، إنها تنتزع الحقائق من أرحام النفوس!

طـــــه جـــــزاع

المطبعي.. تهكمٌ سقراطي وجدلٌ هيراقليطي ماركسي

هذا هو ما يفعله المطبعي تماماً، مع فروق بسيطة لا تكاد تذكر أملتها ضرورات الحياة المعاصرة، فليس من المعقول أن يتمشى المطبعي في الأسواق كما كان يفعل سقراط في أسواق أثينا، يجادل هذا الرجـل البسيط المعترف بجهلـه لكي يساعده في توليـد الأجوبـة التي تدلّه علـى الحقيقة، ويتهكم مـن ذاك الرجـل المتعالم الـذي يتباهـى بأنه عالم وهـو جاهل لا يعلـم شيئاً، وربما فعلها المطبعي في بعض الأسواق ودواوين الوزارات ومضايف شيـوخ العشائـر ومكاتب الصحـف في حقبة من حياتـه، غـير أن الكلام والجدل والحـوار لابد أن يكون مطبوعاً كما يقتضيه عصر الطباعة، فكانت مجلـة (الكلمـة) النجفيـة التي صـدرت بإمكانات المطبعي المتواضعة، ولفتت انتباه الأدباء والكتّاب الى اسلوبهـا المجـدّد الجـريء، وكان يمكـن أن يكون شأن (الكلمة) في الستينيات والسبعينيات من القـرن الماضي، شبيهـا بشأن مجلـة (الآداب) البيروتية لسهيل أدريس لو توفرت لها الأسباب، لكـن كان من الصعوبة بمـكان أن يستمر المطبعي في كلمته بلا مؤسسة تديمها، ومن دون دعم مالي ولا نشر ولا توزيع على مستوى العراق والبلدان العربيـة، فضلاً عن التقلبات السياسية والموجات الفكريـة وصراعـات الأجيـال الأدبيـة التـي كان يموج بهـا المجتمع العراقي والتـي تركت صداها في النجـف وبغـداد علـى السـواء، فلـم تصمـد الكلمـة، ولم يقدر لها أن تستمر في حقب سياسية كان فيها لكل (كلمة) حساب وكتاب.

غـير أن حميـد المطبعـي الـذي نشـأ بفطرته على الجـدل الهيراقليطي، وأدرك منـذ أن كان فتيّـاً أن المـرء لا يمكـن أن يعـبر النهر مرتـين، وأن كل شـيء في الكـون في تغـيّر وجريـان وصيرورة مستمـرة، لم يرضه أن يكون في حدود هذا الجدل البدائـي العائـم، فالتجـأ الى الجـدل الماركسـي، لكنـه سرعان ما انقلـب على ماركس محـوراً هذا الجـدل من صياغاته الماديـة البحت، الى جدل فيه مـن الروح والمثالية والخيـال الشيء الكثير، ولم يفكـر في تكرار تجربة مجلة (الكلمة) بعد أن وجد في الصحافـة الوسيلة التي ترضـي نوازع نفسه في الكتابـة والبحث عن الجـذور، وفي الرحلات الجغرافيـة والفكريـة، متنقـلاً بين جبـال العراق وسهوله، باحثاً عن فـرق الدراويش والمتصوفة، متقصياً أصول العلماء وجذور الأعراق والعادات والتقاليـد ليصوغهـا في نـوع مبتكـر مـن أدب الرحـلات والأسفـار والمشاهدات علـى نهج (ابن بطوطـة) لكـن على الطريقـة الصحفيـة العراقية المطبعية في القص والتقصّي والتشويق والإثارة الصحفية!

المطبعـي اليـوم مريضـ معتكـف في صومعتـه اعتكاف الزهّاد المعتكفين في كهوفهم وصومعاتهم، يوهمنا دوماً أنه يعيش وفق مبدأ الحكمة الهندية الشهـيرة (لا أرى، لا اسمـع، لا أتكلـم) غـير أنـه في حقيقـة أمره، يـرى أكثر مما يـراه المبصرون الحاذقـون، ويسمع أكـثر مما يسمـع السامعون الجوالون، ويتكلم أكثر مما يتكلم المتكلمون.

هـو لا يـكل ولا يمل ولا يتوقف عـن اختراع شكل جديـد للكتابـة مع إطلالـة كل يوم جديـد، يسنده خزيـن هائل مـن الأرشيف الصـوري والأضابير الورقيـة التي تعد بمثابة سجـل النفوس لكل علم مـن أعـلام العـراق على امتـداد قرن مـن الزمان، ويلهمـه عقل حيوي منظم ينافس الكومبيوتر في ذاكرتـه ودقته وسرعته، مع إن أصابعه لم تلامس يومـاً لوحة المفاتيـح، ولم تتعلم يوماً كيف تمسك بفأرة الحاسـوب، أدهشني فكتبـت عنه قبل أكثر من عشرين عامـاً، بأن زمناً طويـلاً سيمضي قبل أن تعـثر الصحافة العراقيـة على صحفي وموثق وأديـب، منظـــم ودقيـق، مواظـب وحريـص، غزيـر الإنتـاج مثله، لقد قـدم للصحافـة العراقية الكثـير مـن الابتـكارات الثقـافيـة والصحفيـة المميـزة، واستطـاع في جهـد متواصـل أن يبعث الـروح في فن الاستطلاعات الصحفية التي بلغت ذروتها علـى يديـه، وأصابها الشحـوب والهزال والرتابـة بعـده، كمـا عمـل علـى بعـث النور في الزوايا المظلمـة، والأركان المنسية، بتقديمه آلاف المفكرين والعلماء والسياسيين والمثقفين والأدباء والفنانين والأطباء والمهندسين والزعماء القبليين، الذين لا يعرف الجيل الجديد شيئاً عنهم، ولعل ما يثير الدهشة في حرصه ودقته المتناهية، انه حين كان قـادراً على التنقـل بسهولة بين مقار الصحف التـي كان يكتب لهـا، فإنه كان يتابـع موضوعاته واستطلاعاتـه وحواراتـه الطويلـة في مرحلـة التصميـم الورقي قبـل عصر الكومبيوتـر، وإنه كان حين يكتـب، فإنـه يرسم موضوعاتـه رسماً، ويستخـدم الألـوان في وضع العناويـن، ويضع الملاحـظـات التفصيليـة للمصمّمـين والمنفذيـن، ويحرص علـى تزويدها بالصور مـع شروحاتها التفصيلية.

ولكـي يضفـي علـى شخصيتـه بعـداً أسطورياً، فـإن العصـا نادراً مـا كانـت تفارقه منـذ سنوات الثمانينيـات، وحين يُسـأل عنها يقـول إنه يتوكأ عليهـا، ويهش بهـا علـى غنمه، ولـه فيهـا مآرب أخـرى، واللـه وحـده يعلـم ما هـي مـآرب حميد المطبعي!

هـذا الرجـل الواقـف علـى تـل الزمـان يراقـب مـرور التاريـخ بعـين المستطلـع المستبطـن البصـير، فيـه شطحـات المتصوفـة، ومزاجـات الفلاسفـة، وعمـق المحللين النفسانيـين، وهوس البارانسايكولوجيـين، وأحـكام المؤرخـين، وفيه مزيـج مـن العمـق والبساطـة، والشـك واليقين، والضعـف والقـوة، والكآبـة والانشـراح، وكان آخر ابتكاراته الصحفيـة كتابة سلسلة من أحكام وتقويمـات عن كتاب وأدباء العـراق، يختصرهم بشراً ونتاجاً ومسيرةً وتاريخـاً وإبداعاً بتقويم قد لا يزيد على ثلاث كلمات.

وهو منذ أن بدأ بمشروع (الكلمة) النجفية، مروراً باستطلاعاتـه المثـيرة عـن مـدن الشمـال وقراه وجباله والتـي اضطرته أحيانـاً الى أن يستخدم البغال للتنقـل في بعض أسفارهـا، ووصولاً إلى البحـث عـن جـذور عـدد مـن المفكريـن والعلماء والفلاسفـة والمثقفـين، وانتهاءً بكتابـة موسوعة أعـلام العـراق، ثـم إلى أحكامـه وتقويماته التي يختزلهـم فيهـا اختزال العـالم الخبـير، لم يتخل يومـاً عن بساطته وتواضعـه ومرحه وسخريته، لقـد خالـط ألاف البشر في رحلاتـه الاستكشافية التأمليـة، جلـس مـع رجـال ديـن وسياسيـين وعسكريـين لامعـين، وشيـوخ عشائـر، وشعراء ومثقفـين كبار، ومع ناس بسطـاء فقراء معدمين، حاورهـم وجادلهـم بمنهـج سقـراط ومخادعـة السفسطائيـين، بحثـاً عن الحقيقـة، ليكتشف في نهاية الأمر، أنه يركض خلف وهم وسراب، فبينه وبين الحقيقة ألف حاجب وألف حجاب.

ولعلـي لا أنسـى يومـاً شتويـاً مـر قبـل اربعـة عشـر عاماً، حـين زارني المطبعـي في بيتي برفقة الزميـل الدكتـور احمـد عبـد المجيـد، وكنـت في حالـة نقاهة بعـد وعكة صحيـة طويلـة ألمّت بي، فاحتفيـت بهمـا وسـررت بزيارتهمـا الكريمـة، وكان مـن ضمـن الصور التي التقطهـا لنا الزميل الراحـل مجيد الخالـدي صـورة اظهر فيهـا وأنا اقطّـع تفاحة في صحـن يضم أنواعاً مـن الفاكهة المتوفـرة آنـذاك، ولم يـدع المطبعي هـذه الزيارة تمـر من دون توثيـق، فنشر الصـورة في جريدة (الـرأي) التـي كان يرأس تحريرهـا الزميل رباح آل جعفـر تحت عنـوان (حديث الصـورة) وبأحد أسمائـه المستعـارة (سليـم شريـف) ومما كتبه بخط يديه تحت تلك الصورة التي لا امتلك أصلها للأسـف الشديد: الجلسـة انبساطية كما تبدو في الصورة، وأصحاب القلم ينبسطون في جلساتهم دائماً، ووفقاً لحركة أفكارهم في الحياة، وقد شاء الدكتـور طه جزاع أن ينبسـط أكثر فأكثر، فحرك السكـين وغرسهـا في تفاحـة جميلـة ليطعـم بها صديقيـه حميد المطبعي وأحمـد عبد المجيد، وفي لحظـة اغفاءة فـرح تحركت الكاميرا بـين أصابع شيخ مصوري (الـزوراء) مجيد الخالدي، لتوثّق ايقـاع القلوب، وما أرحبهـا..! ما أرحب قلبك أيها المطبعي، وما أقسى قلوب محبيك!